**الحداثة الشّعرية-2**

**مفتتح**

ستشهد الحداثة الشعرية، في هذه المرحلة، تطورًا ملحوظًا، أخذ منحاه من مفهوم النص الشعري في حدّ ذاته، في مواجهة إشكاليات التعبير، بما تثيره قضايا الكون، الواقع، والحياة، وتخلّفه في نفوس الشعراء، ممّا تطلّب نصًا متحرّكًا، مطواعًا، يستجيب لتجارب الشعراء الذاتية، ويقوى على احتواء مواقفهم، والتعبير عنها، مهما تعالت رؤاهم الفنية، أو تعقّدت أساليبهم الجمالية، ولم يتأتّ لشعراء هذه المرحلة المضي قدمًا في مشوارهم الشعري الحداثي، لولا تساؤلاتهم المحددّة التي وجّهوها للنص الشعري، والتي طالت مفهومه، بنيته، آليته، وغاياته، فعُوّمت حدوده البنوية، ومُحيت تحديداته الأجناسية، وطرأت عليه أدوات وتقنيات تعبيرية كالتشكيلية والأسلوبية والتخييلية، أو بنائية كالقصة والدراما والرمز والأسطورة، أو موضوعية كنظرة الإنسان للحياة وعلاقته معها، وما ينجم عنها من موضوعات منها: الثورة، المقاومة، الرفض، الغربة، التشيّوء، التكسر، فانفتح النص أكثر فأكثر على فعاليات التجربة الشعرية الباحثة عن الجديد، الذي يقنع شاعره بقدر ما يرضي قارئه، فغدا التراث العربي معينًا قاصرًا دون نهمة التجربة الشعرية المعاصرة، فتجاوزته إلى التراث العالمي بحثًا عن مصادر أخرى تغني موقفه، وتعمق طرحه، وتوسّع بناءه، بحيث يستجيب لقضايا إنسان العصر وهمومه، ممّا أخرجه من ضيق المحلية، وفتح له أبواب العالمية على مصراعيها، طالما أنّ تجارب الشعرية تُعبِّر، في جوهرها، عن إشكاليات إنسان العصر، لا إشكاليات تخصّ فردًا أو جماعة عربية.

**1- نزار قباني**

شاعر معروف بغزارة إنتاجه، والأكثر من ذلك تخصصه في موضوع واحد؛ وهو الحب والمرأة، طيلة تجربته الشعرية التي تجاوز ربع القرن، حيث امتدت من سنة 1944م، وهو تاريخ صدور ديوانه الأول “قالت لي السمراء“، إلى سنة 1998م؛ وهو تاريخ صدور ديوانه الأخير “أبجدية الياسمين“، وتاريخ وفاته أيضًا، لامتلاكه حيوية ونضارة ندر وجودهما عند شعراء سابقين نهجوا طريقته**([[1]](#footnote-1))**، تتمثل في التوغل إلى أعماق المرأة، عارضًا وكاشفًا لكل ما يتصل بمشاعرها وخلجاتها، وما تكتمه في داخلها من عوامل نفسية وعاطفية، كما تتراءى في مجتمعنا الحديث، كذلك أشواقها وأحلامها، وصلتها بالرجل على نحو دقيق، مفصل متنوع، ودونما أن يكرّر نفسه طيلة هذا الامتداد الشعري الضخم والعميق في آن، ولكن هذا كله لم يكتب له الشيوع والانتشار المعروفين في أوساطنا العربية لولا جرأة الطرح والتناول، وكيفيات بناء وصياغة وتصوير الموضوع الشعري بشكل خارج عن المألوف، فضلاً عن عاطفته المتقدة التي تجعله شاعرًا عاشقا وجريئًا**([[2]](#footnote-2))** ليس للنساء والحياة، إنما لما تمثله صورة المرأة عنده، ونظرته الإيجابية للحياة، فكشفت أشعاره عن معاني تقديس الحياة، ويقظة، الجسد وحيوية العشق، فهو عنده قوة دافعة تحافظ على الحياة إذ تجابه الموت وتنتصر عليه.

**أ- سيرته**

نزار بن توفيق القباني (1923- 1998)، دبلوماسي وشاعر سوري، من أسرة عريقة في الأدب، فقد عدّ عمه لأبيه، أبو خليل القباني، واحدًا من رواد المسرح العربي، كان نزار أن درس الحقوق في الجامعة السورية، لكنه اشتغل في السلك الدبلوماسي فور تخرجه منها عام 1945م، وظل متنقلاً بين عواصم الدنيا إلى حين استقالته منه عام 1966م، قد نتوهم أن استقالته كانت من أجل تفرغه للشعر الذي استحوذ عليه بالكامل، مما دفعه إلى إنشاء دار للنشر (1966)، تحمل اسمه “منشورات نزار قباني“، وتضطلع بمهمّة نشر شعره، والتعريف به**([[3]](#footnote-3))**، لكنه، في رأينا، ما هو إلا واجهة ليواري خلفها أوجاعه وأحزانه؛ وهي تتمثل في مستويين، أولهما: سياسي حيث جاءت استقالته تنديدًا بخيبة العرب ومآلهم في مواجهة الغرب**([[4]](#footnote-4))**، وثانيهما: شخصي تولّد إثر تراكم مآسيه الشخصية، إذ بدأت بوفاة نجله توفيق عام 1940م بسبب مرض القلب وهو في سن السابعة عشر، ثم بموت زوجته بلقيس عشية انفجار إرهابي استهدف السفارة العراقية في بيروت عام 1982م أين كانت تعمل**([[5]](#footnote-5))**، ورحلة الاغتراب التي أعقبت الحرب اللبنانية في عام 1882م بين مصر وسويسرا ولندن، حيث استقرّ حتى وفاته، لكنه دفن في دمشق، مسقط رأسه، بجوار ابنه وزوجته وأمه وأبيه، كما أوصى بذلك**([[6]](#footnote-6))**.

**ب- من مؤلفاته**

**-** الشعرية، ومنها:

قالت لي السمراء، طفولة نهد، أشعار خارجة عن القانون، أحبك أحبك والبقية تأتي، قصائد مغضوب عليها، خمسون عامًا في مديح النساء، أبجدية الياسمين.

**-** المسرحية، ومنها:

جمهورية جنونستان.. لبنان سابقًا.

**-** النثرية، ومنها:

قصتي مع الشعر، ما هو الشعر؟، عن الشعر والجنس والثورة، ، الكتابة عمل انقلابي، المرأة في شعري وفي حياتي.

**جـ- النص موضوع الدراسة**

قال نزار قباني من نصه «مع الجريدة»، من مجموعته “قصائد“:

أخرجَ من معطفه الجريدةْ..

وعلبةَ الثقابِ

ودون أنْ يلاحظَ اضطرابي

ودونما اهتمامِ

تناولَ السّكرَ منْ أمامي..

ذوَّبَ في الفنجان قطعتيْنْ

ذوَّبني.. ذوَّبَ قطعتيْنْ

وبعد لحظتيْنْ

ودونَ أنْ يراني

ويعرفَ الشَّوقَ الذي اعتراني..

تناولَ المعطفَ من أمامي

وغابَ في الزّحامِ

مخلّفًا وراءَهُ.. الجريدةْ

وحيدة

مثلي أنا.. وحيدةْ **([[7]](#footnote-7))**.

أول ما يلفت النظر في شعر نزار قباني هو نظرته الفذة، التي لا تكمن في اختياره الموفق لموضوعاته، بل في كيفيات تناولها، وإخراجها بطرائق شعرية متميزة، وهو سر نجاحه في هذا المضمار، فهو رغم دورانه حول موضوع واحد إلا أنه لم يقع في التكرار وإعادة نفسه، تتحقق هذه الكيفيات والطرائق في مؤشرين، وهما:

- سهولة لغته، مع عمق دلالاتها، إذ تختزن من عناصر القوة ما يدلّ على قدرته على اختيار اللفظة التي تختزن طاقة إضافية من المعنى**([[8]](#footnote-8))**، فوردت لغته مخالفة للغة الشعر المألوفة، قديمه وحديثه، لغة تأخذ من الأكاديميين منطقها وحكمتها ورصانتها، ومن اللغة العامية حرارتها وشجاعتها وفتوحاتها الجريئة**([[9]](#footnote-9))**، فكان أن وجد ضالته في لغة ثالثة، محت عنه غربته اللغوية، وحقنته بجرأة تعبيرية غير مألوفة، فانطلق يعبر عن نفسه بأساليب شعرية فائقة، غدت علامة متميزة في شعره، بل عدت علامته المتميزة بلا مدافع، أو كما صرح هو بذلك في قوله:

«لو سقطت ورقة من نزار قباني في الأوتوبيس، وعليها كتابة موقعة منه، لحملها أول راكب يلتقطها إلى منزله..»**([[10]](#footnote-10))**

- طرافة صوره، ولعلها أبرز عناصر الإبداع في شعرية نزار قباني، فاعتبر لأجل ذلك شاعرًا مصورًا لاعتماده على الصورة في الإيحاء، وبث الإحساس ونشره على امتداد نصه الشعري بشكل مدهش نظرا لجدتها وتميزها، إذ تقوم صوره على مشهدية تمتاح زخمها من المحسوسات كالنظر والسماع واللمس والشم والتذوق، في مقابل انسيابية فعاليتها التي تستثمر طريقة العرض السينمائي**([[11]](#footnote-11))**، فتتمظهر الصورة في شعر القباني محركا ديناميا متوترا باستمرار، فهي صور مثيرة بحسيتها المتعلقة بالمرأة وجسدها والمعاني المنبثقة منها، وهي كذلك جامحة الطبيعة، ومتميزة في أصواتها وألوانها، مما سهل شعر القباني على بثّ الأحاسيس الحية في نفوس القراء، بما أضفته على بنائه الفني من روح متميز، وأشاعت فيه كيانًا عضويًا موحدًا**([[12]](#footnote-12))**.

**2- خليل حاوي**

حمل شعر خليل حاوي همًّا كبيرًا من هموم عصرنا الحضاري، تمثل في الثورة التي اجتاحت الأشكال الشعرية التقليدية بعد عجزها عن الاستجابة للتجارب الذاتية التي يثيرها شعراء عصرنا الحالي، ثم المعاناة الجادّة لمعضلات إنسانية فلسفية هي من مستلزمات الإنسان الشاهد على عصره الحاضر شهودًا فعليًا**([[13]](#footnote-13))**، فغدت تجربته الشعرية واحدة من أعمق التجارب العربية تجسيدًا لهموم الإنسان في بلاده وتاريخه وتراثه الشعري، كما غدت قصائده من أعمق وأعقد النصوص الشعرية المعاصرة لما تنطوي عليه من نظرات إنسانية عميقة، نابعة من ثقافة موسوعية حوت أبعاد الفلسفة والأدب والتاريخ والاجتماع**([[14]](#footnote-14))**، في محاولة لتحقيق الأمل ببعث جيل متمرد على كوابيس الضعف والعجز والتخاذل، فوردت قصائده غاية في الدقة والإتقان كأنها تتبع هندسة محددة، إذ تتجمع الصور الفرعية الغزيرة مع بعضها مؤلفة في النهاية بناءً فنيًا شامخًا، فيه تكامل وتوحد **([[15]](#footnote-15))**، بقدر ما فيه من العمق والغموض، اللذين يبثان في النفس مشاعر الحزن والدهشة، ولا يمكن إرجاع ذلك إلى ظاهرة التنوع في الصورة التي عرفت حضورًا كثيفًا ومميزًا على مستوى كتابته الشعرية بما يشمل نوعها ومستواها وفضاءها التعبيري، بل يرجع إلى نزوعها إلى محاولة تملكها لعالمها الخاص، تغدو فيه رؤية وأداة تعبيرية مميزة ومتفردة**([[16]](#footnote-16))**، تتمتع بحضور شخصي وإبداعي كلما اتسعت درجات تراكمها في النص الشعري ونوعياته، ومنها: الصورة المشهدية، الضوئية، اللونية، والحركية**([[17]](#footnote-17))**.

**أ- سيرته**

خليل حاوي (1919- 1982) شاعر وناقد وأكاديمي من قرية الهُويّة، من جبل العرب (الدروز) في سوريا، انتظم في صفوف التعليم بالمدارس المحلية: مدرسة الشوير (1925)، ثم المدرسة اليسوعية (1928)، لكنه غادرها في سن الثانية عشر بسبب مرض والده، فعمل بناءً ليعيل أسرته، وفي أوقات فراغه كان يواصل تثقيف نفسه بنفسه، فتعلم اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، فضلا عن بعض العلوم كالفيزياء والكيمياء والرياضيات، مما مكنه من دخول المدرسة وإتمام تعليمه الثانوي، ثم الالتحاق بالجامعة الأمريكية بلبنان، فتخرج منها بتفوق مما أتاح له فرصة الحصول على منحة دراسية بجامعة كمبريدج البريطانية، فتحصل فيها على شهادة الدكتوراه، عاد إثرها ليستقرّ في لبنان، حيث شغل منصب أستاذ في الجامعة الأمريكية، مكبا على كتابة الأشعار، والدراسات، إلى يوم انتحاره ببندقية صيده؛ لأنه لم يتقبل شعور الذل والعار اللذين أوديا بكامل قواه العقلية، حينما صدمه نبأ اجتياح الصهاينة لبلده الحبيب لبنان، عشية يوم 6/ 6/ 1982م، معلنًا بموته بموته الانتحاري: «هزيمة شاعر وأمّة»**([[18]](#footnote-18))**.

**ب- من مؤلفاته**

**-** الشعرية، ومنها:

نهر الرماد، الناي والريح، بيادر الجوع، ديوان خليل الحاوي، الرعد الجريح، من جحيم الكوميديا.

**-** النثرية، وهي:

جبران إطاره الحضاري وشخيته وآثاره، رسائل الحب والحياة، كما أشرف على موسوعة الشعر العربي**([[19]](#footnote-19))**، حيث صدر منها أربعة أجزاء في بيروت سنة 1984م.

**جـ- النص موضوع الدراسة**

قال من نص عنوانه «البحّار والدّرويش»، من مجموعته الشعرية “نهر ورماد“:

خلِّني! ماتتْ بعيْنيَّ

مناراتُ الطريقْ

خلِّني أمضِ إلى ما لستُ أدري

لنْ تُغاويني المواني النائياتْ

بعضُها طينٌ مُحمَّى

بعضُها طينٌ مواتْ

آهِ كم أحرقتُ في الطّينِ المُحمَّى

آهِ كم مِتُّ مع الطّينِ المواتْ

لنْ تُغاويني المواني النائياتْ

خلِّني للبحرِ، للرّيح، لموتٍ

ينشرُ الأكفانَ زُرْقًا للغريقْ،

مُبحِرٌ ماتْ بعيْنيْهِ الطّريقْ

ماتَ ذاك الضّوءُ في عيْنيْهِ ماتْ

لا البطولاتُ تُنجِّيهِ، ولا ذلَّ الصّلاتْ**([[20]](#footnote-20))**

تتبع هندسة القصيدة الرمزية نسقًا شعريًا يتميز بلغته، ورؤيته، ورموزه، وإيحاءاته الخاصة، بحيث تتكاثف المعاني، وتتداخل الرموز من طريق تجميع الصور، ورفع صوت الجرس النغمي إلى نهاياته القصوى، فتتجمع الصور الفرعية، وتتكاثف الرموز **([[21]](#footnote-21))**، ويعلو الإيقاع الداخلي والخارجي معًا، معلنًا بشكل رمزي مشحون بغايات أسطورية وحضارية عن خيبة وتكسر وفجيعة الإنسان/ الشاعر العربي في مواجهة واقعه، مصيره، ومستقلبه، إذ ينفتح النص على تجربة الاصطدام بالوحول في عالم عجز عن إنتاج المعرفة الإنسانية الحقيقة والتفاعل بمقتضاها، مما أضفى على النص مسحة من الغموض بل التعقيد، بسبب رؤيته الفنية ذات الطبيعة الفلسفية الموغلة في المثالية، وصياغته التعبيرية المغرقة في فضاءات الرمز، والأسطورة.

يدور موضوع القصيدة حول بحار طوّف مع يوليس في المجهول، ومع فاوست الذي ضحّى بنفسه ليفتدي المعرفة، ثم انتهى إلى اليأس من العلم في هذا العصر، فأبحر إلى الشرق العريق باحثًا عن المعرفة، فلمّا رأى حاله كفر بها، علمًا أن الحاوي قد أسقط ذاته على البحّار بعد أن وجد فيه المعادل الموضوعي لتجربته الذاتية، ذلك أنه رأى في الشرق والغرب بوضعهما الحالي عاجزان عن إعطاء المعرفة الإنسانية الحقيقية، وهي الرؤيا العامة للقصيدة التي عانى الحاوي كثيرًا في رصف الرموز من أجل إيصال معناه للقارئ سائغًا من دون مواربة، كرمز الموانئ النائيات الذي يرمز للمعرفة الحقّة التي أحدثت دُوارًا عند فاوست، والرمز اللامحدود المصور لليأس الذي انتهى إليه أثناء شكه بالثقافة المعاصرة، فتنكّر للعلم كما تنكّر هكسلي قبله حينما وجده كالبرق يعد ولا يفي، فتغدو الفعالية الرمزية وكذلك الأسطورية الهيكل العام الذي يؤطر تجربة الخال الشعورية في هذه القصيدة، فضلاً عن تشكيل رؤاه الفنية وصياغته التعبيرية**([[22]](#footnote-22))**، للكشف عن معنى مفاده: أنّ العلوم العصرية ليست منجاة للإنسانية بقدر ما هي أغطية تكفن جفاف الحياة.

1. )- منهم: امرؤ القيس، عمر بن أبي ربيعة، جميل بن معمر، ومجنون ليلى، أما عند الغرب فمنهم: دانتي، وشكسبير . [↑](#footnote-ref-1)
2. )- محمد زكي العشماوي، ***أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشعر- المسرح- القصة- النقد الأدبي)***، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية- مصر، (د.ط)، 2000م، ص152- 154 [↑](#footnote-ref-2)
3. )- استقال نزار قباني من المجال الدبلوماسي، وهو برتبة مستشار، بعد أن قضى فيه واحدًا وعشرين عامًا، شغل خلالها عددًا من المناصب الدبلوماسية لدى وزارة الخارجية السورية (1945- 1966)، في عدد من الدول العربية والأجنبية، وهي: القاهرة، أنقرة، لندن، بكين، مدريد، وبيروت. يُنظر: علي أحمد العرود، ***جدلية نزار قباني في النقد الأدبي الحديث***، دار الكتاب الثقافي، الإربد- الأردن، ط1، 2007م، ص13. [↑](#footnote-ref-3)
4. )- خاصة بعد النكسة العربية، التي أعقبت حرب 1967م، والتي لونت أشعاره في تلك الفترة بطابع سياسي خاص، ولعل أشهر قصائده المعبرة عن تلك النكسة: هوامش على دفتر النكسة، خبز وحشيش وقمر، حوار مع أعرابي أضاع فرسه. يُنظر: حنّا الفاخوري، ***الجامع في تاريخ الأدب العربي الحديث***، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط1، 1986م، ص688. [↑](#footnote-ref-4)
5. )- وقد رثا زوجته بقصيدة عنوانها “بلقيس“، كما رثا نجله بقصيدة عنوانها: “الأمير الخرافي توفيق القباني“. يُنظر: علي أحمد العرود، ***جدلية نزار قباني في النقد الأدبي الحديث***، ص15. [↑](#footnote-ref-5)
6. )- ***م.ن***، ص14- 15. [↑](#footnote-ref-6)
7. )- نزار قباني، ***الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان: قصائد***، منشورات نزار قباني، بيروت- لبنان، (د.ط)، (د.ت)، 1/ 263. [↑](#footnote-ref-7)
8. )- نازك الملائكة، ***الصومعة والشرفة الحمراء؛ دراسة نقدية لشعر في محمود طه***، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط2، شباط (فبراير) 1399هـ- 1979م، ص52. [↑](#footnote-ref-8)
9. )- نزار قباني، ***الأعمال النثرية الكاملة، كتاب: قصتي مع الشعر***، منشورات نزار قباني، بيروت- لبنان، (د.ط)، (د.ت)، 7/ 129. [↑](#footnote-ref-9)
10. )- ***م.ن***، 7/ 302. [↑](#footnote-ref-10)
11. )- صلاح فضل، ***أساليب الشعرية المعاصرة***، بيروت- لبنان، ط1، 1995م، ص43. [↑](#footnote-ref-11)
12. )- محمد زكي العشماوي، ***أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية (الشعر- المسرح- القصة- النقد الأدبي)***، ص155. [↑](#footnote-ref-12)
13. )- حسين مروة، ***دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي***، ص378. [↑](#footnote-ref-13)
14. )- شكري غالي، ***شعرنا الحديث إلى أين؟***، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط1، 1411هـ- 1991م، ص72. [↑](#footnote-ref-14)
15. )- عز الدين إسماعيل، ***الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية،*** ص340. [↑](#footnote-ref-15)
16. )- هدية جمعة البيطار، ***الصورة الشعرية عند خليل حاوي***، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي الإمارات العربية المتحدة، ط1، 1431هـ- 2010م، ص101. [↑](#footnote-ref-16)
17. )- نعيم اليافي، ***تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث؛ دراسة***، صفحات للدراسات والنشر، دمشق- سوريا، ط1، 2008م، ص153. [↑](#footnote-ref-17)
18. )- خليل أحمد خليل، ***موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين***، 1/ 283- 286. [↑](#footnote-ref-18)
19. )- روبرت ب. كامبل، **أعلام الأدب العربي المعاصر؛ سير وسير ذاتية**، ص459. [↑](#footnote-ref-19)
20. )-خليل حاوي، ***ديوان خليل حاوي، من مجموعة: نهر الرّماد***، دار العودة، بيروت- لبنان، ط1، 1973م، ص18- 19. [↑](#footnote-ref-20)
21. )-نسيب نشاوي، ***مداخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر***، ص489. [↑](#footnote-ref-21)
22. )- شكري غالي، ***شعرنا الحديث إلى أين؟***، ص73. [↑](#footnote-ref-22)